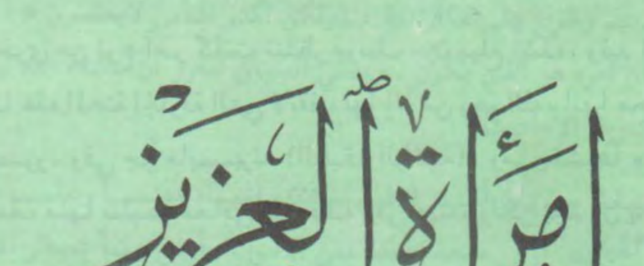
نساء في القرآن

(٦)



اعده وعلق عليه

حامد حسين الفلاحي

لمزيد من الكتب وفي جميع المجالات

زوروا

منتدى إقرأ الثقافي

الموقع: HTTP://IQRA.AHLAMONTADA.COM/

فيسبوك:

HTTPS://WWW.FACEBOOK.COM/IQRA.AHLAMONTADA/



بسم الله الرحمن الرحيم

وصل يوسف الى مصر، وبيع بيع الرقيق، ولكن الذي اشتراه توسّم فيه الخير - والخير يتوسم في الوجوه الصِّباح[1] -فإذا هو يوصي به امرأته خيراً، وهنا يبدأ أول خيط في تحقيق الرؤيا .

ولكن محنة اخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشدّه، وقد أوتي حكماً وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التي لايقف لها إلاّ من رحم الله، إنها محنة التعرض للغواية في جوّ القصور، وفي جوّ مايسمونه (الطبقة الراقية)، وما يغشاها من استهتار وفجور، ويخرج يوسف منها سليماً معافى في خُلقه وفي دينه، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها .

(وقال الذي اشتراه من مصرَ لامرأتهِ أكرمي مثواه عسى ان ينفعنا أو نتّخذه ولداً وكذلك مَكّنا ليوسفَ في الأرضِ ولنعلّمَهُ من تأويلِ الأحاديثِ واللهُ غالبٌ على أمرهِ ولكنّ اكثرَ الناسِ لايعلمون ●)[2]. إن السياق لايكشف لنا حتى الآن عمن اشتراه، وسنعلم بعد شوط في القصة أنه عزيز مصر (قيل: إنه كبير وزرائها)، ولكنا نعلم منذ اللحظة أن يوسف قد وصل الى مكان آمن، وأن المحنة قد انتهت بسلام، وأنه مقبل بعد هذا عى خير: (أكرمي مثواه). والمثوى : مكان الثويّ والمبيت والإقامة، والمقصود بإكرام مثواه: إكرامه، ولكن التعبير أعمق، لأنه يجعل الاكرام لالشخصه فحسب، ولكن لمكان إقامته، وهي مبالغة في الاكرام ، في مقابل مثواه في الجبّ وماحوله من مخاوف وآلام ! ويكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه في الغلام من خير، ومايتطلع إليه فيه من أمل: (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا). ولعلهما لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات ، ومن ثمّ تطلع الرجل أن يتخذاه ولداً إذا صدقت فراسته وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته . وهنا يقف السياق لينبّهَ الى أنّ هذا التدبير من الله، وبه وبمثله قدّر ليوسف التمكين في الأرض -وها قد بدأت بشائره بتمكين يوسف في قلب الرجل وبيته- ويشير الى أنه ماضٍ في الطريق ليعلمه الله من تأويل

---

(١) الصِّباح: مفردها صَبوح، أي الوجه النضر .

(٢) يوسف ٢١

الأحاديث، بما يدلّ على أنّ قدرة الله غالبة، لاتقف في طريقها قوة، وأن الله مالك أمره ومسيطر عليه فلايخيب ولايتوقف ولايضلّ : (وكذلك مكنّا ليوسُفَ في الأرضِ ولنعلّمَهُ من تأويلِ الاحاديثِ واللهُ غالبٌ على أمرهِ) وهاهو ذا يوسف أراد له إخوته امراً، وأراد له الله أمراً، ولما كان الله غالباً على أمره ومسيطراً فقد نفذ أمره، أما إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ماأرادوا : (ولكنّ اكثرَ الناسِ لايعلمون ●) لايعلمون أن سنة اللهِ ماضية وأن أمره هو الذي يكون . ويمضي السياق ليقرر أنّ ماشاء الله ليوسف، وقال عنه: (ولنعلمَهُ من تأويل الأحاديث) .

قد تحقق حين بلغ أشُدَّهُ: (ولما بلغَ أشُدَّهُ آتيناه حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين●)(٣). فقد أوتي صحة الحكم على الأمور، وأوتي علماً بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا، أو بما هو أهمّ من العلم بالحياة وأحوالها، فاللفظ عام ويشمل الكثير، وكان ذلك جزاء إحسانه: إحسانه في الاعتقاد واحسانه في السلوك : (وكذلك نجزي المحسنين ●) .

وعندئذٍ تجيئه المحنة الثانية في حياته، وهي أشدّ وأعمق من المحنة الأولى، تجيئه وقد أوتي صحة الحكم، وأوتي العلم -رحمة من الله- ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه . والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير: (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) . إنّ السياق لم يذكر كم كانت سِنّها وكم كانت سِنّه، فلننظر في هذا الأمر من باب التقدير : لقد كان يوسف غلاماً عندما التقطته السيارة وباعته في مصر، أي أنه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولاتزيد، فهذه هي السِّن التي يطلق فيها لفظ الغلام، وبعدها يسمى فتى فشاباً فرجلاً، وهي السن التي يجوز فيها أن يقول يعقوب: (وأخافُ أن يأكلَهُ الذئب) . وفي هذا الوقت كانت هي زوجة، وكانت وزوجها لم يُرزَقا أولاداً كما يبدو من قوله: (أو نتّخذَهُ ولداً) .

فهذا الخاطر: خاطر التبنّي لايَردُ على النفس عادةً إلاّ حين لايكون هناك ولد، ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد، فلابدّ أن تكون قد مضت على زواجهما فترة يعلمان فيها ان لاولد لهما. وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألاّ يقلّ سنه عن أربعين سنة،

---

(٣) يوسف ٢٢ .

وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالي الثلاثين . ونتوقع كذلك ان تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين او حواليها ، وهي السن التي نرجح ان الحادثة وقعت فيها ، نرجحه لأن تصرّف المرأة في الحادثة ومابعدها يشير الى أنها كانت مكتملة جريئة، مالكة لكيدها ، متهالكة كذلك على فتاها ، نرجحه من كلمة النسوة فيما بعد: (إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) . وإن كانت كلمة فتى تقال بمعنى: عبد، ولكنها لاتقال إلاّ ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف، وهو ماترجحه شواهد الحال .

نبحث هذا البحث لنصل منه الى نتيجة معينة، لنقول: إنّ التجربة التي مرٌ بها يوسف أو المحنة- لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يصوره السياق، انما كانت في حياة يوسف فترة مراهقته كلها في جوّ هذا القصر، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين، مع جوّ القصور، وجوّ البيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وجد فيها امرأته مع يوسف: (يوسفُ أعرض عن هذا واستغفري لذنبكِ إنك كنتِ من الخاطئين ●)(٥).

وكفى !!

والتي يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز، فيكون جوابها عليهن: مأدبة يخرج عليهن يوسف فيها ، فيفتتنّ، ويُصرّحن، فتُصَرّحُ المرأة :

(ولقد راوَدتُهُ عن نفسه فاستعصَم ولئن لم يفعل ماآمرهُ ليُسجَنَنَّ وليكونَن من الصاغرين ●)(٦). فهذه البيئة التي تسمح بهذا وذلك بيئة خاصة، هي بيئة الطبقة المترفة دائماً، ويوسف كان فيها مولى وتربى فيها في سن الفتنة، فهذه هي المحنة الطويلة التي مرّ بها يوسف وصمد لها، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة . والسنّه وسنّ المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة في تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة والصمود لها هذا الأمد الطويل . والآن نواجه النصوص : (وراَوَدتهُ التي هو في بيتها عن نفسهِ وغَلّقتِ الأبوابِ وقالت هَيتَ لك) .وإذن فقد كانت المراودة في هذه المرة

(٤) قافلة في طريقها الى مصر .
(٥) يوسف ٢٩ .
(٦) يوسف ٣٢ .

مكشوفة، وكانت الدعوة فيها سافرة الى الفعل الاخير، وحركة تغليق الابواب لاتكون إلا في اللحظة الاخيرة، وقد وصلت المرأة الى اللحظة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعة الجسد الغليظة ونداء الجسد الأخير: (وقالت هَيتَ لك)!(٧).

امرأة العزيز في صُرَعِ الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح، فلاتحفل(٨) حياءً أنثوياً ولاكبرياءً ذاتياً، كما لاتحفل مركزاً اجتماعياً ولافضيحة عائلية، والتي تستخدم -مع ذلك- كل مكر الانثى وكيدها، وتتبجح بشهوانيتها امام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة حيث تبدو فيها الانثى متجردة من كل تجمّل المرأة وحيائها، الأنثى التي لاتحس في إرواء هواتفها الأنثوية أمراً يُعاب أصلاً! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيته، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعتها، فإنّ الإداء القرآني -الذي ينبغي ان يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفني الإسلامي - لم يتخلَّ عن طابعه النظيف مرة واحدة، حتى وهو يصوّر لحظة التعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها، لاينشئ ذلك المستنقع الكريه الذي خاض في وحلة كتاب (القصة الواقعية) وكتاب (القصة الطبيعية) في هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفني في الأداء! .

هذه الدعوة السافرة الجاهرة لاتكون أول دعوة من المرأة، إنما تكون هي الدعوة الأخيرة، وقد لاتكون أبداً إذا لم تضطر اليها المرأة اضطراراً، والفتى يعيش معها، وقوته وفتوته تتكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلابدّ كانت هناك إغراءات شتى خفيفة ولطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة، (قالَ مَعاذَ الله) .أعيذ نفسي بالله أن أفعل . (إنه ربي أحسنَ مثواي) وأكرمني بأن نجاني من الجبّ وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن .

(إنه لايُفلِحُ الظالمون ●) . الذين يتجاوزون حدود الله فيرتكبون ماتدعينني اللحظة إليه . والنص هنا صريح وقاطع في أنّ ردّ يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبي المصحوب بتذكر نعمة الله عليه، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوز هذه الحدود، فلم تكن هناك

---

(٧) هيت لك: إسم فعل بمعنى : أقبل .
(٨) لاتحفل : لاتأبه ولاتهتم ولاتبالي .

استجابة في أول الموقف لما دعته اليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته : (وقالت هيتَ لك) .

(ولقد هَمّت به وهَمَّ بها لولا أن رأى برهان ربِّه) . لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة، فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصوِّرون فيها يوسف هائج الغريزةمندفعاً شبقاً(٩)، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلايندفع! صُوِّرت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على أصبعه بفمه! وصُوِّرت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن -أي نعم من القرآن- تنهى عن مثل هذا المنكر وهو لايرعوي(١٠) ! حتى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبدي، فجاء فضربه في صدره، الى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع ! .

وأما جمهور المفسرين أنها هَمّت به هَمَّ الفعل، وهَمَّ بها هَمَّ النفس(١١)، ثم تجلّي له برهان ربه فترك . وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضافي تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي وقال: (انها إنما همت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها وهي السيدة الآمرة، وهمَّ هو بردّ الاعتداء ولكنه آثر الهرب فلحقت به وقدّت قميصه من دبر) . وتفسير الهمّ بأنه الضرب مسألة لادليل عليها في العبارة، فهي مجرد رأي لمحاولة البعد بيوسف عن همّ الفعل أو همّ الميل إليه في تلك الواقعة، وفيه تكلف وابتعاد عن مدلول النص .

أما الذي خطر لي وأنا أراجع النصوص هنا. وأراجع الظروف التي عاش فيها يوسف في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة، قبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعدما أوتيهما، الذي خطر لي ان قوله تعالى: (ولقد همّت به وهَمَّ بها لولا أن رأى برهانَ ربِّه) هو

---

(٩) الشبق: شدة الشهوة .

(١٠) لايرعوي : لايرتدع ولايكفّ .

(١١) وفي شهادة المرأة فيما بعد أمام الملك (قالت امرأة العزيز الآن حصحصَ الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) مايؤيد ذلك . وقال الدكتور محمد محمود حجازي (لقد همت ليفعل بها، ولولا أن رأى برهان ربه وتذكرّ جلاله وأمره ومراقبته لهمَّ بها وفعل، إنه لم يهمّ بها قط لأن رؤية برهان ربه قد سبق الهمّ ومنعه) . التفسير الواضح المجلد الثاني ص٧٣ . وأقول: مثال ذلك قوله تعالى : (ولولا ان ثبتناك لقد كدتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً) الاسراء ٧٤ . فلم يركن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين لأن الله ثبته .

نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعد ان أبى يوسف في أول الأمر واستعصم، ويوسف ..، العبد الصالح -الانسان- لم يزوّر الأداء القرآني في شخصيته الانسانية لمحة واحدة، وهو يواجه الفتنة بكل بشريته وتربيته ودينه تمثل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها ، لقد ضعف حين همت به حتى همَّ بها ، ولكن الخيط الآخر شدّه وأنقذه من السقوط، ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة، ومنطق البيئة، وجو القصور، ونسوة القصور ايضاً! ولكنه تمسّك بالعروة الوثقى .. ليست هناك لمحة واحدة مزوّرة في واقعية الشخصية وطبيعتها ، وليس هناك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفني ؛ ذلك ان هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه .

وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة، ولكن السياق القرآني لم يفصّل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة، لأن المنهج القرآني لايريد ان يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق اكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الالمام بلحظة الضعف بينهما ليكتمل الصدق والواقعية والجوّ النظيف جميعاً .

هذا ماخطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف، وهو أقرب الى الطبيعة البشرية والى العصمة النبوية، وماكان يوسف سوى بشر، نعم إنه بشر مختار، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة لضعف الطارئة عاد الى الاعتصام والتأبي(١٢).

(كذلك لنَصرف عنه السّوءَ والفحشاءَ إنه من عِبادنا المخلصين ●)(١٣).

(واستبقا البابَ)فهو قد آثر التخلص بعد أن استفاق، وهي عدت خلفه لتمسك به، وهي

(١٢) قال الزمخشري في الكشاف (فإن قلتَ: كيف جاز على نبي الله ان يكون منه الهمّ بالمعصية وقصد إليها؟ قلتُ: المراد أن نفسه مالت الى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه . وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هماً لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم البلاء وشدته) .

(١٣) يوسف ٢٤، قال النسفي في تفسيره: السوء: خيانة الرجل في أهله، الفحشاء: الزنا .

مازال في هياجها الحيواني . (وقدّت قميصَه من دُبُرٍ) نتيجة جذبها له لترده عن الباب، وتقع المفاجأة :(وألفَيا سيدها لدى الباب) ، وهنا تتبدى المرأة المكتملة ، فنجد الجواب حاضراً على السؤال الذي يهتف به النظر المريب(١٤)، إنها تهتم الفتى: (قالت ماجزاءُ مَن أرادَ بأهلكَ سوءاً)؟ ولكنها امرأة تعشق، فهي تخشى عليه(*)، فتشير بالعقاب المأمون: (إلاّ أن يُسجَنَ ، أو عذابٌ أليم ●)(١٥).

ويجهر يوسف بالحقيقة في وجه الاتهام الباطل: (قالَ هي راودتني عن نفسي) وهنا يذكر السياق أن احد اهلها حسم النزاع بشهادته : (وشهد شاهد من اهلها ان كان قميصُهُ قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ●وإن كانَ قميصُهُ قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين●)(١٦).

فأين ومتى أدلى هذا الشاهد بشهادته هذه؟ هل كان مع زوجها (سيدها بتعبير أهل مصر) وشهد الواقعة؟ أم أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر؟ كما يقع في مثل هذه الاحوال ان يستدعي الرجل كبيراً من أسرة المرأة ويطلعه على مارأى، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدم المائعة القيم ! . هذا وذاك جائز وهو لايغيّر من الأمر شيئاً، وقد سُمِّيَ قوله هذا (شهادة) لأنه سئل رأيه في الموقف والنزاع المعروض من الجانبين -ولكل منها ومن يوسف قول- سميت فتواه هذه شهادة، لأنها تساعد على التحقيق في النزاع والوصول الى الحق فيه، فإن كان قميصه قُدَّ من قُبلٍ فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها، فهي صادقة وهو كاذب، وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فهو إذن من أثر تملصه منها وتعقبها هي له حتى الباب، وهي كاذبة وهو صادق، وقدّم الفرض الأول لأنه ان صحّ يقتضي صدقها وكذبه، فهي السيدة وهذا فتى، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الاول .

(فلمّا رأى قميصه قدّ من دبُرٍ) .

---

(١٤) أي نظرات العزيز وهو يرى زوجته في زينتها وفي وضع مريب .
(١٥) يوسف ٢٥ .
(١٦) يوسف ٢٦-٢٧ ، قُدَّ: مُزِّقَ ، قُبُل : أمام، دُبُر : خلف .
(*) أي تخشى على يوسف من القتل .

تبين حسب الشهادة المبنية على منطق الواقع أنها هي التي راودت وهي التي دبرت الاتهام، وهنا تبدو لنا صورة (الطبقة الراقية) في الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها هي اليوم شاخصة، رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية وميل الى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله :(قالَ إنه من كيدكنّ إن كيدكنّ عظيمٌ ● يوسفُ أعرض عن هذا واستغفري لذنبكِ إنكِ كنتِ من الخاطئين ●)(١٧).

هكـذا ! ... (إنه من كيدِكنّ أنّ كيدكنّ عظيم ●)

فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق، والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر الى الجنس كله، فيما يشبه الثناء، فإنه لايسوء المرأة ان يقال لها :إنّ كيدكنّ عظيم !فهو دلالة في حسّها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الانثى على الكيد العظيم!

والتفاتة الى يوسف البرئ: (يوسفُ أعرض عن هذا)

فأهملهُ، ولاتُعِرهُ اهتماماً، ولاتتحدث به، وهذا هو المهم ، محافظة على الظواهر! وعظةٌ الى المرأة التي راودت فتاها عن نفسه، وضُبِطَت متلبسة بمساورته(١٨) وتمزيق قميصه:

(واستغفري لذنبكِ إنكِ كنتِ من الخاطئين●)

إنها الطبقة الأرستقراطية ، من رجال الحاشية، وفي كل جاهلية، قريب من قريب! ويسدل الستار على المشهد ومافيه، وقد صَوّر السياق تلك اللحظة بكل ملابساتها وانفعالاتها ولكن دون ان يُنشئ منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقعاً للوحل الجنسي المقبوح !

ولم يَحُل السيد بين المرأة وفتاها، ومضت الأمور في طريقها، فهكذا تمضي الامور في القصور ! ولكن للقصور جدراناً ،وفيها خدم وحشم، ومايجري في القصور لايمكن أن يظلَّ مستوراً ، وبخاصة في الوسط الارستقراطي، الذي ليس لنسائه من همٍّ إلاّ الحديث عما يجري في محيطهنّ، وإلاّ تداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات:

---

(١٧) يوسف ٢٨-٢٩ .

(١٨) مراودته .

(وقالَ نسوةٌ في المدينة امرأةُ العزيز تُراودُ فتاها عن نفسِهِ قد شغَفَها حُباً إنّا لنراها في ضَلالٍ مبين ●)(١٩).

والنسوة .. نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه، اللغط بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذي راودته عن نفسه، بعدما شغفها حباً، والاستنكار الذي تبدو فيه غير النسوة من امرأة العزيز اكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة ! . ثم وهلتهن(*) امام طلعة يوسف، ثم إقرارهن الانثوي العميق بموقف المرأة التي كنّ يلغطن بقصتها ويستنكرن موقفها، وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل، وهي آمنة في ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها، ثم ميلهن كلهن على يوسف بالاغراء والاغواء ! ! .

وهو كلام أشبه بما تقوله النسوة في كل بيئة جاهلية عن مثل هذه الشوون، ولأول مرة نعرف أن المرأة هي (امرأة العزيز)، وأن الرجل الذي اشتراه من مصر هو (عزيز مصر) -أي كبير وزرائها- ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة :

(امرأة العزيز تُراودُ فتاها عن نفسِهِ)

ثم بيان لحالها معه: (قد شغَفَها حُبّاً) .. فهي مفتونة به، بلغ حبه شغاف قلبها ومزقه، وشغاف القلب: غشاؤه الرقيق، (إنّا لنَراها في ضَلالٍ مبين ●) . وهي السيدة الكبيرة زوجة الكبير، تفتتن بفتاها المشترى، أم لعلهن يتحدثن عن اشتهارها بهذه الفتنة وانكشافها وظهور أمرها، وهو وحده المنتقد في عرف هذه الأوساط لا الفعلة في ذاتها لو ظلت وراء الاستار !؟ .

وهنا كذلك يقع مالايمكن وقوعه إلاّ في مثل هذه الأوساط، ويكشف السياق عن مشهد من صنع تلك المرأة الجريئة، التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهن وكيد من كيدهن: (فلمّا سَمِعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعتَدَت لهنّ مُتّكأً وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سِكّيناً وقالتِ اخرج عليهنّ) .

---

(١٩) يوسف ٣٠ .
(*) دهشتهن .

لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها ، وندرك من هذا أنهن كُنّ نساء الطبقة الراقية، فهنّ اللواتي يُدعَينَ الى المآدب في القصور، وهنّ اللواتي يُؤخذنَ بهذه الوسائل الناعمة المظهر، ويبدو أنهن كُنّ يأكلن وهنّ متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان، فأعدّت لهنّ هذا المتكأ، وآتت كلّ واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام، ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً، وأن الترف في القصور كان عظيماً، فإنّ استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية، وبينما هنّ منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة، فاجأتهن بيوسف :

(وقالت اخرج عليهن) ... (فلما رأينه اكبرنهُ) ، بُهتنَ لطلعته ودهشنَ :

(وقطعنَ أيديهنّ) ، وجرحنَ أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة .

(وقلنَ حاشَ لله) ! ، وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيراً عن الدهشة بصنع الله، (ماهذا بشراً إن هذا إلاّ ملكٌ كريم ●) (٢٠). وهذه التعبيرات دليل على تسرب شيء من ديانات التوحيد في ذلك الزمان . ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والاعجاب والذهول، فقالت قولة المرأة المنتصرة، التي لاتستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفخر عليهن بأنّ هذا في متناول يدها، وإن كان قد استعصى قياده مرة فهي تملك هذا القياد مرة اخرى: (قالت فذلكنّ الذي لُمتنّني فيه) ، فانظرن ماذا لقيتنّ منه من البهر والدهش والاعجاب ! . (ولقد راودْتُهُ عن نفسه فاستعصمَ) ،

ولقد بهرني مثلكن فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام - تريد ان تقول أنه عانى في الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها - ثم تظهر سيطرتها عليه أمامهنّ في تبجّع المرأة في ذلك الوسط، لاترى بأساً من الجهر بنزواتها الانثوية مجاهرة مكشوفة في معرض النساء: (ولئن لم يفعل ما آمُرُهُ ليُسجَنَنّ وليكوناً من الصاغرين ●)(٢١). فهو الاصرار والتبجح والتهديد والاغراء الجديد في ظل التهديد .

---

(٢٠) يوسف ٣١ .
(٢١) يوسف ٣٢ .

ويسمع يوسف هذا القول في مجتمع النساء المبهورات ، المبديات لمفاتنهن في مثل هذه المناسبات، ونفهم من السياق أنهن كنّ نساءً مفتونات فاتنات في مواجهته، فاذا هو يناجي ربه : (قالَ ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه) . ولم يقل: ماتدعونني اليه، فهن جميعاً كنّ مشتركات في الدعوة، سواء بالقول أم بالحركات واللفتات، واذا هو يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولاتهن لإيقاعه في حبائلهن، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم، فيقع مايخشاه على نفسه،

ويدعو الله أن ينقذه منه: (وإلاّ تصرف عني كيدَهنّ أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين●)(٢٢). وهي دعوة الانسان العارف ببشريته، الذي لايغتر بعصمته، فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء .

(فاستجاب له ربّهُ فصرف عنه كيْدَهنَّ إنه هو السَّميعُ العليم ●)(٢٣). وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن بعد هذه التجربة، او بزيادة انصرافه عن الاغراء حتى لايحسّ في نفسه أثراً منه، أو بهما جميعاً : (إنه هو السَّميعُ العليم●) .الذي يسمع ويعلم، يسمع الكيد ويسمع الدعاء، ويعلم ماوراء الكيد وماوراء الدعاء،وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية بلطف الله ورعايته،وانتهت بهذه النجاة الحلقةالثانية من قصته المثيرة.

(ثمّ بدى لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجُنُنَّهُ حتى حين ●)(٢٤). وهذه هي الحلقة الثالثة والأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف، فكل مابعدها رخاء، وابتلاء لصبره على الرخاء، بعد ابتلاء صبره على الشدة، والمحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة، والسجن للبريء المظلوم أقسى، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى .

(ثم بدى لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجُنُنَهُ حتى حين ●) . وهكذا جو القصور وجو الحكم المطلق، وجو الاوساط الارستقراطية، وجو الجاهلية، فبعد ان رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف، وبعد ان بلغ التبجح بامرأة العزيز ان تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهن فتاها

(٢٢) يوسف ٣٣ .
(٢٣) يوسف ٣٤ .
(٢٤) يوسف ٣٥ .

الذي شغفها حباً، ثم تعلن لهن أنها به مفتونة حقاً، ويفتتنّ هنّ به، ويَغرينَهُ بما يلجأ الى ربه ليغيثه منه وينقذه، والمرأة تعلن في مجتمع النساء -دون حياء- أنه إما أن يفعل مايؤمر به، وإما أن يلقى السجنَ والصغار، فيختار السجن على مايؤمر به! بعد هذا كله بدى لهم أن يسجنوه الى حين !.

ولعل المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد، ولعل الأمر كذلك قد زاد انتشاراً في طبقات الشعب الاخرى، وهنا لابدّ ان تحفظ سمعة (البيوتات)! واذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهم ونسائهم، فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء، كل جريمته أنه لم يستجب ، وأن امرأة من (الوسط الراقي قد فتنت به، وشهرت بحبه، ولاكت الألسن حديثها .

* * *

(وقالَ الملك ائتوني به)

ونجد يوسف يردّ على رسول الملك الذي لانعرف: إن كان هو الساقي الذي جاء أول مرة، أو رسولاً تنفيذياً مكلفاً بمثل هذا الشأن . نجد يوسف السجين الذي طال عليه السجن لايستعجل الخروج حتى تحقق قضيته، ويتبيّن الحق واضحاً في موقفه، وتعلن براءته على الأشهاد -من الوشايات والدسائس والغمز في الظلام، لقد رباه ربه وأدّبه، ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة، فلم يعد معجَّلاً(٢٥) ولا عجولاً ! .

إنّ أثر التربية الربانية شديد الوضوح في الفارق بين الموقفين: الموقف الذي يقول يوسف فيه للفتى: (اذكرني عند ربِّك)(٢٦)، والموقف الذي يقول له فيه: (إرجع الى ربِّكَ فاسأله مابالُ النسوةِ اللاتي قطعنَ أيديَهُنّ) والفارق بين الموقفين بعيد.

(قالَ ارجع الي ربِّكَ فاسأله مابالُ النِّسوةِ اللاتي قطَّعنَ أيديَهُنَّ إنّ ربي بكيدهنَّ عليم●)(٢٧).لقد ردَّ يوسف أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره، وحتى

(٢٥) معجَّلاً : بفتح الجيم المشددة، اسم مفعول بمعنى: صاحب عجلة . معجِّلاً: بكسر الجيم المشددة، اسم فاعل بمعنى: يستعجل غيره .

(٢٦) يوسف ٤٢ . (٢٧) يوسف ٥٠ .

يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطّعنَ أيديهن، بهذا القيد، تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها، وكيدهن له بعدها، وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة، دون ان يتدخل هو في مناقشتها، كل أولئك لأنه واثق من نفسه، واثق من براءته، مطمئن الى أن الحق لايخفى طويلاً، ولايُخذَلُ طويلاً .

ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة (الرب) بمدلولها الكامل، بالقياس إليه وبالقياس الى رسول الملك إليه[٢٨]، فالملك رب هذا الرسول لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه، والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه . ورجع الرسول فأخبر الملك، وأحضر الملك النسوة يستجوبهن - والسياق يحذف هذا لنعلمه مما يليه : (قالَ ماخطبكُنّ إذ راودتهنّ يوسُفَ عن نفسه) .

والخطب : الأمر الجلل، والمصاب، فكأنّ الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه، فهو يواجههن مقرراً الاتهام، ومشيراً الى أمرٍ لهن جلل، أو شأن لهن خطير: (ماخطبكنّ إذ راودتنّ يوسُفَ عن نفسه)؟ .

ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت الوزير، وماقالته النسوة ليوسف وما لُحن به وأشرنَ إليه، من الاغراء الذي يبلغ درجة المراودة، ومن هذا نتخيّل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ، فالجاهلية دائماً هي الجاهلية، إنه حيثما كان الترف، وكانت القصور والحاشية، كات التحلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الارستقراطية! .وفي مثل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك، يبدو أنه لم يكن هناك مجال للإنكار : (قلنَ حاشَ لله ما علمنا عليه من سوء) . وهي الحقيقة التي يصعب إنكارها، ولو من مثل هؤلاء النسوة، فقد كان أمر يوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لايقوم فيه جدال . وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف، والتي يئست منه، ولكنها

(٢٨) بالقياس الى يوسف: قوله تعالى (إن ربي بكيدهنّ عليم) وبالقياس الى رسول الملك: قوله تعالى (ارجع الى ربك) .

لاتستطيع ان تخلص من تعلقها به، تتقدم لتقول كل شيء في صراحة: (قالت امرأة العزيز الآن حَصحَصَ الحقُّ أنا راودته عن نفسه وإنه لمنَ الصادقين ●)(٢٩). الآن حصحص الحق وظهر ظهوراً واضحاً لايحتمل الخفاء: (أنا راَودتُهُ عن نفسِه وإنه لمن الصادقين ●)وزادت مايكشف عن أن قلبها لم يخلُ من إيثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد،ومايشي كذلك بأن عقيدة يوسف قدأخذت طريقها الى قلبها فآمنَ: (ذلك ليعلمَ أني لم أخُنه بالغيب وأنّ اللهَ لايهدي كيدَ الخائنين ●)(٣٠).

وهذا الاعتراف ومابعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر، كما يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفعٍ وتجمّلٍ في التعبير: (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ●) . شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه، لاتبالي المرأة ماوراءها مما يلمّ بها ويلحق بأردانها، فهل هو الحق وحده الذي يدفعها لهذا الإقرار الصريح في حضرة الملك والملأ؟ .يشي السياق بحافز آخر هو حرصها على ان يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبأ بفتنتها الجسدية، أن يحترمها تقديراً لإيمانها ولصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته: (ذلك ليعلمَ أني لم أخُنهُ بالغيبِ) .ثم تمضي في هذه المحاولة والعودة الى الفضيلة التي يحبها يوسف ويقدّرها: (وأنّ اللهَ لايهدي كيدَ الخائنين ●) .

وتمضي خطوة اخرى في هذه المشاعر الطيبة: (وماأبرِّئُ نفسي إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوءِ إلا مارَحِمَ ربي إنّ ربي غفورٌ رحيم●)(٣١). إنها امرأة أحبت ، امرأة تكبر الرجل الذي تعلقت به في جاهليتها وإسلامها، فهي لاتملك الاّ أن تظلَّ معلقة بكلمة منه، او خاطرة ارتياح تحسّ أنها صدرت عنه(٣٢)! .والى هنا تنتهي محنة السجن ومحنة الاتهام ، وتسير الحياة بيوسف رخاء، الاختبار فيه بالنعمة لابالشدة .

---

(٢٩) يوسف ٥١ .
(٣٠) يوسف ٥٢ .
(٣١) يوسف ٥٣ .
(٣٢) والأرجح ان قوله تعالى: (ذلك ليعلمَ أني لم أخُنهُ بالغيب) انما كان على لسان يوسف عليه السلام بعد ان ظهرت براءته بشهادة النسوة وشهادة امرأة العزيز، فقال يوسف عليه السلام (ذلك ليعلم) اي العزيز، (أني لم أخنه) اي مع زوجته (بالغيب) اي في غيابه عن بيته، (وأنّ الله لايهدي كيد الخائنين)، ثم أضاف يوسف تواضعاً: (وماأبرّيءُ نفسي) أي لا أنسب لها العصمة من الخطأ .

نساء في القرآن

هذه هي الحلقة الاولى من (**المرأة في ظلال القرآن**)، استعرضنا فيها حياة النسوة اللاتي ورد ذكرهنّ في القرآن الكريم، وكما جاء في التفسير القيّم(**في ظلال القرآن**)

وعسى الله ان يوفقنا لإعداد الحلقة الثانية من هذه السلسلة

والتى سنعرض فيها

كل ما جاء في شأن النسوة في القرآن الكريم من العبادات والمعاملات.

اقرأ في هذه الحلقة:-

(١) **أم موسى** عليهما السلام ... **إمرأة ابراهيم** عليهما السلام

(٢) **بلقيس** عليها السلام ... **خويلة** رضي الله عنها

(٣) **زينب بنت جحش** رضي الله عنها

(٤) **مريم** عليها السلام

(٥) **عائشة** رضي الله عنها

موافقة وزارة الاعلام ٣٣ في ١٩٩٤/١/٢٦

مطبعة النواعير - رمادي